

## ابن أبي زيد: مواقف وصفات الدكتور البشير البوزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم  
والصلاة والسلام على سيد المرسلين

أول عهدي بالشيخ ابن أبي زيد (310 - 386)<sup>(1)</sup> كان في مرحلة التعليم الثانوي حيث قمت اذ ذاك باعداد ترجمة وجيزة للشيخ ولم أكن في تلك المرحلة مؤهلاً لادراك قيمة الرجل العلمية ولكن الذي شدني الى شخصيته جانبه السلوكي الانساني ولقد بقيت شمائله عالقة بنفسي وشخصيته أثيرة لديّ وازددت اجلالاً لها كلما اطلعت على أثر من آثاره العلمية القيمة وصرت على قناعة بأن أحد أسباب أزمة ثقافتنا الاسلامية الحالية ندرة العلماء الأئمة الذين يمثلون قدوة بفضل علمهم الغزير، وسلوكهم القويم وصفاتهم النفسية النبيلة، ولقد كان ابن أبي زيد علماً فذاً ارتقى الى مستوى مشكلات عصره، واستطاع السيطرة عليها فتجاوب معه مجتمعه وبوآه المكانة التي استحقها وها نحن اليوم - رغم انقضاء القرون يجمعنا هذا الفقيه الأصيل لتتدارس جوانب من تراثه الثمين والتعرف على لمحات من سيرته العطرة ولقد آثرت في هذه المناسبة أن أحاول تجلية الجانب الانساني السلوكي في شخصية الشيخ ابن أبي زيد من خلال بعض مواقفه ومناقبه التي أفاض في ذكرها مترجموه .

وهي مواقف غطت سنين عمره الممتد المبارك وشملت شيوخه وأقرانه وأسرته وتلاميذه والناس العاديين من معاصريه .

فالشيخ نشأ على الوفاء والشجاعة وظهر ذلك منذ شبابه المبكر فحين تصدى

---

(1) عياض المدارك : 4/ 4921 ابن ناجي : معالم الايمان 3/ 118 مخلوف شجرة النور 1/ 96 .

فقهاء القيروان للدفاع عن عقيدتهم السنية ومذهبهم المالكي واستشهد منهم جمع غفير ومن أفلت من القتل كان مصيره السجن والتنكيل، ومن هؤلاء الذين طالهم التعذيب الشيخ أبو بكر اللباد<sup>(1)</sup> أكبر شيوخ ابن أبي زيد فبعد أن غادر ابن اللباد السجن لزم داره ومنع من الاتصال بالناس فكان طلبته يتوجهون إليه خفية واضعين كتبهم تحت ثيابهم<sup>(2)</sup> حتى لا تتفطن اليهم أعين الرقباء وكان ابن أبي زيد في طليعة الطلبة المواظبين على حضور دروس شيخهم دون أن يصدده خوف تفتن السلطة وما قد تلحقه به من نقمة.

ووفاء الشيخ كان للأحياء والأموات، فرثى شيوخه اثر استشهادهم أو وفاتهم غير عابىء بغيظ العبيدين فرثى على سبيل الذكر لا الحصر الشيخ أبا الفضل العباس بن عيسى الممسي القيرواني الذي استشهد في قتاله ضد العبيدين قرب المهديّة في رجب سنة 333<sup>(3)</sup>

وأسوق كنموذج أبياتاً من مرثيته لشيخه ابن اللباد (م 333) التي أظهر فيها الشيخ ابن أبي زيد لوعة تضاهي لوعة الابن البار لفقد أبيه :

يا طول شوقي الى من غاب منظره	وذكره في جوى الاحشاء قد سكنا
لهفي على ميت ماتت به سبل	قد كان أحيا رسوم الدين والسنا
كم من محنة طرقت في الاله فلم	يحزن لذلك اذ في ربه امتحنا
حتى استنار به الاسلام في بلد	لواه مات به الاسلام واندفنا
الفقه حلّته والعلم حليته	والدين زينته والله شاهدنا
أب لا صغرنا كفل لا كبرنا	وفي النوازل ملجانا ومفرعنا

ان مؤهلات ابن أبي زيد وصفاته الحميدة لفتت اليه أنظار شيوخه فبجلوه وآثروه من ذلك أن شيخه أبا محمد عبد الله بن أبي القاسم بن سرور التجيبي<sup>(4)</sup>

(1) أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد القيرواني م 333: المدارك

304/3 - 314 ابن ناجي معالم الايمان 23/3 ابن فرحون: الدياج 249.

(2) المدارك في ترجمة ابي الفضل عباس الممسي.

(3) المدارك 297/5 معالم 31/3 ترجمة عدد 192.

(4) المدارك 341/3.

عند ما اشتدّ به المرض أشار عليه أصحابه أن يحبس كتبه حتى لا يستولي عليها السلطان العبيدي بعد وفاة الشيخ فوزعها التجيبي أثلاثاً ناب ابن أبي زيد ثلثها ولكن الشيخ الواهب ارق لفقد كتبه فطلب استردادها فردّ الثلثان وتوفي قبل ردّ الثلث الذي كان في دار أبي زيد فسلم من استيلاء السلطان العبيدي عليه<sup>(1)</sup>.  
معاملته لأسرته:

جرت العادة أن لا يهتم المؤرخون القدامى بأسر المترجم لهم وأولادهم وما يتصل بحياتهم العائلية بصفة عامة إلا أن تكون هناك رابطة متينة بين ذلك وبين حياتهم العلمية. ولم يشذ ابن أبي زيد عن هذا الوضع فكانت الأخبار المتصلة بحياته داخل أسرته محدودة ولكن الأخبار رغم ندرتها نلمس منها حذب الشيخ على أفراد أسرته وعنايته بهم والقيام على تربيتهم نستشعر هذا على سبيل المثال في واقعة رواها الدباغ مضمونها أن مؤدب أولاد الشيخ ابن أبي زيد ضرب واحداً منهم بسوط فأخطأ السوط وأصاب عينه فسالت، فبادر وردّ العين لموضعها ورمى ببصره الى السماء ودعا بدعاء خفي وأزال يده فرد الله بقدرته العين كما كانت، وكان الشيخ ابن أبي زيد ينظر من شباك وهو جالس في علو له ووقع ما وقع على مرأى منه فبادر الى دواة وقلم وورق وأتى المؤدب، فاعتذر المؤدب فقال أبو محمد: كل ذلك رأيته ولكن أُمِّلِ عليّ الدعاء الذي دعوت به لئلا تنساه لأدعو لنفسي به. فقال يا شيخ لما رأيت مصيبتى عظمت دعوت الله تعالى فقلت اللهم ببركة والده ردّ عينيه كما كانت<sup>(2)</sup>.

وهذا الخبر يقطع النظر عن صحة مختلف جزئياته وتفصيله فاننا نستنتج منه عناية الشيخ بأبنائه فهو يتدب لهم المؤدب الخاص، وهو يتفقد العملية التربوية بنفسه من شرفة في علو داره، وهذه العناية الفائقة بتربية الأبناء كان لها نتائجها الطيبة فصار أبنائهم من العلماء وتقلّد ابنه أبو بكر أحمد (م 460 هـ) خطة قاضي قضاة القيروان.<sup>(3)</sup>

(1) ت 346: معالم 3/ 57 - 59.

(2) معالم 3/ 116.

(3) المدارك 2/ 717 طم. معالم 3/ 189.

## علاقة الشيخ بمجتمعه :

كان الشيخ يشارك أفراد مجتمعه أفرانهم وأترانهم ويحنو على الضعفاء والمساكين ، ويعود المرضى ويصلي على الموتى .

قال الشيخ أبو الحسن القابسي<sup>(1)</sup> دخلت على أبي عبد الله العسال<sup>(2)</sup> وابنه أبي حفص في النزع وهو جالس ، وفي يده جزء من القرآن ، وفي المجلس أبو سعيد ابن أخي هشام<sup>(3)</sup> وابن التبان<sup>(4)</sup> وابن أبي زيد ، والشيخ على حاله يقرأ بحذاء طاق في داره ثم يحول وجهه إليهم فيقول كيف رأيتم أبا حفص فيقول الجماعة بخير إن شاء الله إلى أن مات فترحموا وسكتوا فحول الشيخ وجهه (أبو عبد الله العسال) وقال : مات أبو حفص ؟ قلنا نعم أصلحك الله وجبر مصابك ، فثنى الجزء ولم يطبقه وحول وجهه إليه وهو جالس فقال : رحمك الله يا بني فقد كنت صواماً ، ولم يخرج أبو محمد وصحبه إلا بعد أن غسلوا ابن شيخهم .

وهذه المشاركة الوجدانية المواساة لم يكن الشيخ يديها للوجهاء والعلماء بل كانت تشمل العامة والفقراء وكتب التراجم طافحة بما يدل على ذلك .

## علاقته بتلاميذه :

كان لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (310 - 386) الدور البارز في الانتصار النهائي للمالكية بالقيروان فركز مدرستها وأصل منهاجها وربطها بنفوس الأجيال الفتية وذلك بفضل ما أوتيته الشيخ من علم غزير وأريحية زكية فصارت دروسه قبلة طلبة العلم شرقاً وغرباً . وكان يخص طلبته الفقراء الذين يفدون عليه برعاية خاصة فيوفر لهم الظروف المادية التي تساعد على طلب العلم والتفرغ له ، وتجاوزت عنايته ناحية المأكل والمأوى إلى حد تزويج بعض طلبته الذين شقت عليهم حياة العزوبية .

(1) انظر ترجمة : معالم 3/ ١٣٤ - 143 .

(2) أبو عبد الله محمد بن سرور العسال ت 346 معالم 3/ 59 - 60 .

(3) ت 384 هـ معالم 3/ 106 .

(4) انظر ترجمة معالم : 3/ 88 - 96 .

ذكر صاحب معالم الايمان<sup>(1)</sup> أن أحد طلبته الاندلسيين وفد على الشيخ فأكرمه وأنزله وأجرى عليه ما يحتاج اليه من نفقة وجعله امام مسجد، وذات يوم وأثناء توجه هذا الطالب من داره الى المسجد لأداء الصلاة، لمح الطالب امرأة خارجة من الحمام وقد كشفت عن وجهها لما نالها من حرّ الحمام ظانة أن لا أحد يلحظها، فلما رآته سترت وجهها وانصرفت، ولكن الطالب أتبعها ببصره وأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً فتبعها الى أن دخلت دار الفقيه ابن أبي زيد الذي كان ينظر الى الطالب وهو في تلك الحالة فلما رآه ينظر اليه أصابه الذهول ودخله الحياء والخجل ورجع الى داره حزيناً ولما تأخر الطالب الامام عن الصلاة أتاه المؤذن وأعلمه أن الشيخ يطلب منه الحضور، فخرج الى المسجد وصلى بالناس ثم إن الشيخ أقبل على تلميذه يذاكره ويؤانسه إلى أن صلى العشاء الآخرة فقال له أبو محمد انصرف الى دارك حتى أصل إليك، فظن الطالب سوءاً وعاد اليه حزنه وكآبته. ولما وصل الى داره حضر أبو محمد عنده وقال له: يا بني انما جئتك معتذراً من تقصيري في حقك اذ لم أقم بجميع ما تحتاج اليه وذلك أني لم أتفقد أنك تحتاج الى النساء، فأنت شاب وها أنا شيخ احتاج الى الزيادة في ذلك فكيف أنت!

وأما الصبية التي رأيته خارجة من الحمام فاني رأيته صغيرة وهي لك. وما أخرتها لهذا الوقت الا انهم في الدار من ذلك الحين يصلحون من شأنها، فلم يبرح حتى وصلت الصبية بجميع ما تحتاج اليه من ثياب وحلي وفرش وتركها في منزله وانصرف، هذه الحادثة لا أريد أن أعلق عليها وأدع ذلك للدباغ الذي قال: «واعجابه هكذا كان خواص العلماء في أخلاقهم وانصافهم واعانتهم ولو وقع اليوم أقل من هذا التلميذ مع شيخه، لما نظر له في وجهه ولا صلى وراءه أبداً ولا قدّمه من خطة شرعية ولا تقبل له توبة أبداً!

وفي هذا السياق وفي اطار تجلية اريحية الشيخ ابن أبي زيد مع طلبته ينقل الشيخ ابن ناجي عن شيخه البرزلي حادثة لا تخلو من غرابة وبقطع النظر عن صدق

---

(1) معالم: 114/3.

التفاصيل فانها تدل بوضوح على مدى حذب الشيخ ابن أبي زيد على طلبته . جاء في الرواية أن ابنة الشيخ أبي محمد دخلت حماما في أول الليل فطالت الإقامة وهي معتقدة أن أول الليل لم يزل فلما خرجت لم تجد احداً يمشي فخافت ان هي مشت الى دار أبيها قد يقع بها ما يؤذيها فطوقت باب علو فخرج منه رجل فقال لها ما تريدين فقالت كنت في الحمام واعتقادي أن أول الليل لم يزل وخفت إن مشيت إلى داري يضر بي من يجдени فأحببت أن أبيت عندكم حتى يطلع النهار فقال افعلي: فوجدت رجلاً من طلبة العلم وكتبه بين يديه فأخذ ينظرها وليس معه في الموضوع أحد فخافت منه فما كان بعد ساعة الا وأخذ الشيطان يوسوس اليه ويغريه بالصبيبة الجميلة ولكن الفتى يتذكر نار جهنم فيطرد الوسوسة من باله ولكن سرعان ما عاودته فأخذ في وعظ نفسه فلم تنته فوضع اصبعه فوق ذبالة المصباح وقال لنفسه نار جهنم أعظم فهل لك الصبر عليها .

وجعل ينقل أصابعه على الذبالة والفتاة تنظر وما زال كذلك الى أن طلع الفجر فقال لها سلمني الله وإياك، وإن الفجر قد طلع فامشي الى دارك فمشت فوجدت امها خلف الباب وهي تلتهب عليها فقالت لها: يا بنية لعلك سالمة؟ فقالت: سالمة، واعلمتها ما جرى لها وأعلمت والدتها والدها أبا محمد فجعل الشيخ ينظر طلبته لعله يعرف الرجل فلما جاءت الدؤلة اليه أخذ الكتاب ليقرأ فيه ويداه مغطتان بكفه فعلم أنه هو، فلما انقضى الدرس وأخذ الناس في الخروج أشار اليه بالجلوس فسأله عن سبب تغطية يديه فكلمه بكلام علم منه أنه صاحبه فعرفه أنها ابنته وزوجه اياها<sup>(1)</sup>.

كان الشيخ لطيفاً مع التلاميذ يأخذهم برفق ولين ويهتم بمشاغلهم ويسعى لحل مشكلاتهم يتواضع لهم في غير ضعف ويتسامح ويعدل حتى مع المشاكسين منهم فيذكر المؤرخون أن أحد تلاميذه الكبار وهو أبو سعيد البراذعي<sup>(2)</sup>. كان «يعترض عليه وينبه على أوهامه ويزري ببعض كلامه»<sup>(3)</sup> وهذا السلوك وإن كان

(1) معالم 3/ 115 .

(2) انظر حوله المدارك 3/ 708 معالم 3/ 184 الشجرة 105 .

(3) المدارك 3/ 709 .

غير محمود بين تلميذ واستاذه لكنه يدل على سعة بال الشيخ أبي محمد وتسامحه مع تلاميذه مما شجعهم على ابداء استقلاليتهم في التفكير والجرأة في التعبير. ويدور الزمن دورته ويكتب البراذعي كتاب: «تهذيب المدونة» ويحمله الى شيخه ابن أبي زيد فيأمر هذا الأخير بحرقه أو محوه لما أشيع عن البراذعي أنه تعامل مع العبيدين.

ولكن أبا سعيد رجع اليه مرة أخرى وقدم اليه الكتاب وأنشده:

خذ العلوم ولا تعباً بناقلها      واقصد بذلك وجه الخالق الباري  
اصل الرواية كالاشجار مثمرة      اجن الثمار واخل العود للنار<sup>(1)</sup>

فلا مشاكسات التلميذ ولا الاشاعات ثنت الشيخ عن الرجوع الى الحق<sup>(2)</sup> فقبل الكتاب ما دام سليماً وخالياً من كل انحراف، فابن أبي زيد ينحاز الى الحق ولو كان الحق في جانب تلميذه وهذا الموقف وأمثاله جعل البراذعي يدي لوعة وأسى حينما بلغه نبأ وفاة شيخه<sup>(3)</sup> ان علاقة الشيخ بتلاميذه كانت تتجاوز حلقة الدرس فكان يعتني بهم أيام تحصيلهم ويرعاهم بعد عودتهم الى بلدانهم وكثيراً ما كان يتدخل بالحسنى بين طلابه الشيوخ وأهل بلدانهم اذا طرأ ما يعكر العلاقة بينهم من ذلك تدخله ووساطته بين أهل توزر وقاضيههم وشيخهم الشقراطي فبعث اليهم رسالة مما جاء فيها:

«لقد كان لكم فيما بينكم من النصيحة صاحبنا أبو زكريا يحيى بن علي حفظه الله كفاية بالغة... فلا تبغوا عنه حولا فقد جعل فيه من الخير والفهم ما يسعكم وواسع منكم: اعاذكم الله من فتنة خفيت عنكم»<sup>(4)</sup>.

وكان أبو محمد شديد المتابعة لأخبار طلابه القضاة. وكان هؤلاء يستفتونه فيما يعترضهم من قضايا عويصة، وكتب التراحم حافلة بأخبار هذه المراسلات<sup>(5)</sup>.

(1) معالم 492/3.

(2) قال الداودي: (كان سريع الانقياد الى الحق) المدارك 492/3.

(3) معالم 148/3.

(4) الثريا: صفر الخير 1364. جانفي 1945 ص 5. تونس.

(5) انظر على سبيل المثال: الصلة: ترجمة عدد 1397 ص 622. المدارك: 763/4.

كرمه وجوده:

قال الشيخ الدباغ: كان رحمه الله من الأجواد وأهل الايثار والصدقة، كثير البذل للفقراء والغرباء، وطلبة العلم كان ينفق عليهم ويكسوهم ويزودهم<sup>(1)</sup>. وهذه جملة من مبادراته الكريمة الدالة على سخائه واختياره الموقف المناسب للبذل والعطاء.

- وهب ليحيى بن عبد الله المغربي عند قدومه الى القيروان مائة وخمسين ديناراً ذهباً.

- جهز ابنة الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار قائلاً: كنت أعددتها من حين املاكها لثلاثي شغل قلب أبيها من قبلها.

- أهدى الفقيه أبا بكر بن أبي العباس الصقلي - عندما كان طالباً بالقيروان يرتاد دروس ابن أبي زيد جارية أنجب منها ولداً وكان اذا ذكر شيخه يفيض في سرد فضائله وينهمر من عينيه دمع التأثر<sup>(2)</sup>.

- عندما ولدت بنت الشيخ محرز بن خلف خصص لها بعض المال وأوكل من يتجر به فلماً طلبت للزواج بعث اليها ما ربحته التجارة وكان مقداره خمسين ألف دينار<sup>(3)</sup>.

وكرم الشيخ يشمل أيضاً من كان بعيد الدار فقد بعث الى القاضي عبد الوهاب البغدادي بألف دينار حينما بلغه ما عليه من فاقة وخصاصة.

تواضعه:

رغم خصال الشيخ ومناقبه الحميدة فكان شديد التواضع كثير المراقبة لنفسه غير مذك لها نفهم ذلك من خلال موقفه مع العابد الزاهد عيسى بن ثابت فقد جرى

(1) ن. م: 3 / 113.

(2) ن. م.

(3) كتاب الجامع لابن أبي زيد ت: أبو الأجناف وبطيخ. نقلا عن حاشية الأجهوري على الرسالة 9 / 1 ب.



بينهما بكاء عظيم وذكر) وعندما حانت لحظة الوداع طلب عيسى من الشيخ ابن أبي زيد أن يكتب اسمه في البساط الذي تحته ليدعوه كلما رآه، عندها بلغ التأثير بأبي محمد غايته وبكى تاليا قوله عز وجل: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾<sup>(1)</sup>.

ثم توجه بالخطاب الى عيسى قائلاً له: فهبني دعوت لك فأين عمل صالح يرفعه<sup>(2)</sup>.

لقد تتبععت ترجمة الشيخ فلم أقف على كلمة أو موقف حاقد صدر عن الشيخ نحو عالم من العلماء، أو أحد من الناس رغم ما شهدته عصره من محن وتقلبات فكانت شخصية ابن أبي زيد شخصية العالم المتزن المترفع عن الصغائر فضلاً عن الكبائر فحاز صداقة الجميع وجسم أخلاق العامل العالم.

لقد كان القاضي دقيقاً حينما قال عنه في ترجمته «إنه حاز رياسة الدين والدنيا».

نعم حاز رياسة الدين بفضل علمه وورعه وحاز رياسة الدنيا بفضل مشاعره الوجدانية المرفهة ومواقفه الانسانية النبيلة.

---

(1) فاطر 10 .

(2) المدارك 3/ 496 .